زيارة القبور وسماع الأموات

ما زال الحديث موصولا عن القبر وأحواله وسبق وأن ذكرنا أن القبر هو أول منازل الآخرة فمن نجا منه كان ما بعده أيسر وذكرنا أن القبر فيه هول وفظاعة، وفيه ظلمة، وله ضمَّة، وفيه فتنة وهو إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

وتكلمنا عن بعض أسباب عذاب القبر ومنها: عدم الاستبراء من البول والنميمة، الغلول، الكذب، هجر القرآن، الزنا، الربا، وأن الميت محبوس في قبره بدينه، وأن الميت يعذب ببكاء الحي.

وقبل أن أتكلم عم زيارة القبور ومتعلقاتها لابد من بيان بعض الأمور:

أولا: أن الحياة في القبور هي حياة برزخية وهي مرحلة انتقالية من دار الدنيا إلى دار الآخرة ولكل منها أحكام تخصة فلا يقاس بعضها على بعض فلو قلنا مثلا الشهيد حي فمعناه حياة برزخية ليست كحياتنا وليست كحياة الآخرة.

ثانيا: أن كلامنا يشمل جميع القبور والأموات بما فيهم الأنبياء.

والبعض يظن أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيّ الدارين وهذا تكذيب لصريح القرآن والسنة .

قالت عائشة أشتد المرض بالنبي صلى الله عليه وسلم وكان مسندا رأسه بين صدرها ونحرها فدخل عبد الرحمن- بن أبي بكر- وبيده السواك، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته، فقضمته ولينته فاستن به كأحسن ما كان مستنا- وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه، يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات».ثم قال بل الرفيق الأعلى ثلاثا.

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ. وقد تم له صلّى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

خ عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مات وأبو بكر بالسنح، - قال: إسماعيل يعني بالعالية - فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر " فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله، قال: بأبي أنت وأمي، طبت حيا وميتا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: {إنك ميت وإنهم ميتون} [الزمر: ٣٠]، وقال: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين} [آل عمران: ١٤٤] قال: فنشج الناس يبكون.

وفي رواية قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها " فأخبرني سعيد بن المسيب، أن عمر قال: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت، حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات».

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله صلّى الله عليه وسلم من غير أن يجردوه من ثيابه وكفنوه فلا ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة.

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض، فرفع أبو طلحة فراشه الذي توفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحدا.

ودخل الناس الحجرة أرسالا عشرة فعشرة، يصلون على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ولا يؤمهم أحد، وصلى عليه أولا أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، وصلت عليه النساء بعد الرجال، ثم صلى عليه الصبيان.

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملا، حتى دخلت ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله صلّى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء.

<u>حكم زيارة القبور:</u>

الراجح أنها مستحبة للرجال والنساء فروى أحمد وغيره عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: " نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ: " أَلَا إِنِّي قَدْ

كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ بَدَا لِي أَنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، فَزُورُوهَا وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا .." أي كلاما باطلا.

آداب زيارة القبور:

آداب خاصة بالنساء ومنها:

-الالتزام الآداب العامة في خروج المرأة من بيتها فلا تخرج إلا بإذن زوجها أو وليها، وأن تلتزم الزي الشرعي فلا تتبرج وألا تخالط الرجال غير المحارم .

-وألا يصاحب زيارتها منكرات شرعية فلطم الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك.

-ألا يكثرن من زيارة القبور فقال صلى الله عليه وسلم : (لعن الله زوارات القبور).

آداب عامة ومنها:

- عدم شد الرحال لزيارة القبور :

لما رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

فالزيارة للمدينة تكون للمسجد لا للقبر وتأتي زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وصحابييه تبعا لزيارة المسجد.

-عدم تخصيص أوقات مخصصة للزيارة كنصف رجب والأعياد واليوم السابع واليوم الأربعين والسنوية وإنما تشرع الزيارة عندما يشعر الحي بطغيان الدنيا عليه فعليه من زيارة القبور للعظة.

الدعاء عند دخول القبور:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه - «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة، فقال: " السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. . . » الحديث

وأما حديث علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من مر على المقابر وقرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) إحدى عشر مرة ، ثم وهب أجرها للأموات أعطي من الأجر بعدد الأموات) فلا أصل له.

ما يحرم عند القبور:

-الذبح لأصحاب القبور ودعائهم بتفريج الكرب وقضاء الحاجات وهذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

-الذبح لله عند القبور ودعاء الله عند القبور واعتقاد أن بعض أصحاب القبور الدعاء عندهم مستجاب فهذا من الشرك الأصغر فحكمه كالكبائر.

-البناء عليها وتجصيصها.

م عن جابر رضي الله عنه قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه، أو يزاد عليه). والنهي عن التجصيص من أجل أنه نوع زينة وأنه دخل النار.

م عن أبي الهياج الاسدي قال: (قال لي علي بن أبي طالب: ألا ابعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته).

-ومنها القعود عليها:

م عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لان يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر).

م عن أبي مرثد الغنوي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تصلوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها).

هل تسمع الموتى:

قال الشيخ الألباني ما ملخصه : (أدلة من قال أن الموتى لا يسمعون:

الدليل الأول: قوله تعالى: { وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ } (فاطر: ٢٢) وقوله: { {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} [النمل: ٨٠]

وأجاب الآخرون بأن الآيتين مجاز وأنه ليس المقصود ب (الموتى) وب (من في القبور) الموتى حقيقة في قبورهم وإنما المراد بهم الكفار الأحياء شبهوا بالموتى " والمعنى من هم في حال الموتى أو في حال من سكن القبر " كما قال الحافظ ابن حجر ...

فأقول: لا شك عند كل من تدبر الآيتين وسياقهما أن المعنى هو ما ذكره الحافظ رحمه الله تعالى وعلى ذلك جرى علماء التفسير لا خلاف بينهم في ذلك فيما علمت ولكن ذلك لا يمنع الاستدلال بهما على ما

سبق؛ لأن الموتى لما كانوا لا يسمعون حقيقة وكان ذلك معروفا عند المخاطبين شبه الله تعالى بهم الكفار الأحياء في عدم السماع فدل هذا التشبيه على أن المشبه بهم - وهم الموتى في قبورهم - لا يسمعون كما يدل مثلا تشبيه زيد في الشجاعة بالأسد على أن الأسد شجاع بل هو في ذلك أقوى من زيد ولذلك شبه به وإن كان الكلام لم يسق للتحدث عن شجاعة الأسد نفسه وإنما عن زيد وكذلك الآيتان السابقتان وإن كانتا تحدثتا عن الكفار الأحياء وشبهوا بموتى القبور فذلك لا ينفي أن موتى القبور لا يسمعون بل إن كل عربي سليم السليقة لا يفهم من تشبيه موتى الأحياء بهؤلاء إلا أن هؤلاء أقوى في عدم السماع منهم .

الدليل الثاني: قوله تعالى: { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } [فاطر: ١٣، ١٤] } .

قلت: فهذه الآية صريحة في نفي السمع عن أولئك الذي كان المشركون يدعونهم من دون الله تعالى وهم موتى الأولياء والصالحين الذين كان المشركون يمثلونهم في تماثيل وأصنام لهم يعبدونهم .

الدليل الثالث: حديث قليب بدر وله روايات مختصرة ومطولة أجتزئ هنا على روايتين منها:

الأولى: حديث ابن عمر قال: وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول " فذكر لعائشة فقالت: إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنهم الآن يعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق ثم قرأت: {إنك لا تسمع الموتى} حتى قرأت الآية أخرجه البخاري .

والأخرى: حديث أبي طلحة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان: ويا فلان ابن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ". قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيرا ونقمة وحسرة وندما . أخرجه الشيخان

ووجه الاستدلال بهذا الحديث يتضح بملاحظة أمرين:

الأول: ما في الرواية الأولى منه من تقييده صلى الله عليه وسلم سماع موتى القليب بقوله: " الآن " فإن مفهومه أنهم لا يسمعون في غير هذا الوقت. وهو المطلوب.

والأمر الآخر: أن النبي صلى الله عليه وسلم أقر عمر وغيره من الصحابة على ما كان مستقرا في نفوسهم واعتقادهم أن الموتى لا يسمعون.

الدليل الرابع:

قول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام "

أقول: ووجه الاستدلال به أنه صريح في أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يسمع سلام المسلمين عليه إذ لو كان يسمعه بنفسه لما كان بحاجة إلى من يبلغه إليه كما هو ظاهر لا يخفى على أحد إن شاء الله تعالى. وإذا كان الأمر كذلك فبالأولى أنه صلى الله عليه وسلم لا يسمع غير السلام من الكلام وإذا كان كذلك فلأن لا يسمع السلام غيره من الموتى أولى وأحرى .

ثم إن الحديث مطلق يشمل حتى من سلم عليه صلى الله عليه وسلم عند قبره ولا دليل يصرح بالتفريق بينه وبين من صلى عليه بعيدا عنه.

أدلة المخالفين:

الأول: حديث قليب بدر المتقدم وقد عرفت مما سبق بيانه أنه خاص بأهل القليب من جهة وأنه دليل على أن الأصل في الموتى أنهم لا يسمعون من جهة أخرى وأن سماعهم كان خرقا للعادة فلا داعي للإعادة

والآخر: حديث: " إن الميت ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا ". وفي رواية " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان. . . " الحديث

وهذا كما ترى خاص بوقت وضعه في قبره ومجيء الملكين إليه لسؤاله " فلا عموم فيه وعلى ذلك حمله العلماء كابن الهمام وغيره) .

الدليل الثالث:

ما رواه مسلم في صحيحه عن عائش رضي الله عنهما أنها قَالَتْ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ " قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ "

والجواب أن المراد ليس الخطاب ولكن الدعاء بمعنى أدعو لكم أن يحل عليكم بركة اسم الله السلام.

وإن كان بمعنى الخطاب فيجوز مخاطبة من لا يعقل كما خاطب النبي مكة حين خرج منها، وكما خاطب جبل أحد.

الدليل الرابع:

احْتَجُّوا أَيْضا بِحَدِيث مَا من أحد يمر بِقَبْر أَخِيه الْمُؤمن كَانَ يعرفهُ فِي الدُّنْيَا فَسلم عَلَيْهِ إِلَّا عرفه ورد عَلَيْهِ

وَأجَاب المانعون إن الْحَافِظ ابْن رَجَب تعقبه وَقَالَ إِنَّه ضَعِيف بل مُنكر. وقال ابن الجوزي في " العلل المتناهية في الأحاديث الواهية" (٢/ ٤٢٩): (هذا حديث لا يصح وقد أجمعوا على تضعيف عبد الرحمن ابن زيد قال ابن حبان: "كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك) وانظر السلسة الضعيفة (٤٤٩٣) .